

أضواء البيان

@ 128 @ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلاًيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَسَّاءً وَاهُمٌ
جَهَنَّمَ كُلًّا خَبِثَ لَدُنَّاهُمْ سَعِيرًا { . .
تنبيه .

في آية (طه) هذه وآية (الإسراء) المذكورتين إشكال معروف . وهو أن يُقال : إنهما قد
دلتا على أن الكافر يُحْشَرُ يوم القيامة أعمى ، وزادت آية (الإسراء) أنه يحشر أبكم
أصم أيضاً ، مع أنه دلت آيات من كتاب الله على أن الكفار يوم القيامة يبصرون ويسمعون
ويتكلمون . كقوله تعالى : { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُ تَوَنَّدًا } ، وقوله
تعالى : { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنْ زُيِّنَ لَهُمْ مَسْوَاقِعُهُمْ } ،
وقوله تعالى : { رَبِّ لَهُمْ رَبَّنَا أَنْبَأْ أَبْصِرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ
صَالِحًا } ، إلى غير ذلك من الآيات . وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب . عن
آيات الكتاب) الجواب عن هذا الإشكال من ثلاثة أوجه : .

الوجه الأول واستظهره أبو حيان أن المراد بما ذكر من العمى والصمم والبكم حقيقته .
ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار
ويسمعون زفيرها ، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع . الوجه الثاني أنهم لا
يرون شيئاً يسرهم ، ولا يسمعون كذلك ، ولا ينطقون بحجة ، كما أنهم كانوا في الدنيا لا
يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعون . وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس
وروي أيضاً عن الحسن كما ذكره الألويسي وغيره . وعلى هذا القول فقد نزل ما يقولونه
ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به . كما أوضحنا في غير هذا الموضع . ومن
المعلوم أن العرب تطلق لا شيء على ما لا نفع فيه . ألا ترى أن الله يقول في المنافقين : {
صُمٌّ بُكْمٌ عُمَى } ، مع أنه يقول فيهم : { فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ
بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ } ، ويقول فيهم : { وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعُ لِقَوْلِهِمْ } أي
لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم . ويقول فيهم : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَارِهِمْ } وما ذلك إلا لأن الكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلا شيء : فيصدق على
صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم ، ومن ذلك قول قعنب بن أم صاحب : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ } وما ذلك إلا لأن الكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه
كلا شيء : فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم ، ومن ذلك قول قعنب بن أم صاحب : % (

صُمُّوْا إِذَا سَمِعُوا خِيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ % وَإِنْ ذَكَرَتْ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَعِزُّوْا %